الافْتِتَاحِيَّة

التَّقدُّم لا يمْنَعُ انْهِيار الحَضَارات

يَنسب الغرب إلى نفسه فضل التَّقدُّم على باقي الشُّعوب والمجتمعات. ويعود الغرب في هذا التَّفضيل إلى مطلع القرن الثَّامن عشر، مع ما عرفه آنذاك بعد الاكتشافات العلميَّة من تغيُّر في أنماط الحياة، والتنقُّل، والإنتاج، والتّفكير، أخرجته من العصور الوسطى، وأدخلته عصر النَّهضة والإنسانيَّات... ولم يُخف مفكرون، وعلماء اجتماع غربيّون ،مثل تلك الأحقِّيَّة في التَّقدُّم على باقي الثَّقافات والشُّعوب، بعدما عدّوا حضارتهم ذروة ما بلغته البشريَّة عبر تاريخها، بعدما تطوّرت من مرحلة السّحر، والغيبيَّات، واللَّاعقلانيَّة، والحاجة إلى دين، إلى العقلانيَّة، والمعرفة التجريبيَّة، الَّتي تميّزت بها حضارة الغرب فباتت في أعلى مراتب ما بلغته الحضارات عبر التاريخ.

لقد تحقَّق ما يعدّه الغرب تقدُّمًا بعد قطيعته التاريخيَّة مع الدين، وبعد هيمنة العقلانيَّة، والتوجُّه إلى السَّيطرة على الطَّبيعة، وإلى تأليه الفرد وحُرِّيَّته. ومع ذلك التغيُّر، توجَّهت أنظار القادة، والعلماء، والمفكّرين نحو «الوعد العظيم» الَّذي سيحقِّق السَّعادة للأفراد، والجماعات، من خلال «الحضارة الجديدة» الَّتي ستتسيَّد

على باقي العالـم، وتحقّـق للإنسـان على هـذه الأرض مـا كانـت تعد بـه المسـيحيَّة في الجنـة؛ مـا يعني عـدم تأجيـل إشـباع الرَّغبـات إلـى عالـم آخـر، قـد لا يكـون موجـودًا. وسيتمُّ الرّبـط بيـن ذلـك الإشباع، وبيـن السَّعادة الَّتِي يتطلَّع إليهـا الإنسـان منـذ وجوده.

لـن يقتصـر الوعـد العظيـم على ذلـك البُعْـد النَّفسيّ للسَّعادة؛ بـل سيوجِّه المجتمع الجديـد فـي الغـرب، مجتمـع الثّـورة الصِّناعيَّـة، وتوسُّـع الإنتـاج والتصديـر، «مجتمـع السـوق»، وعقيـدة «المنفعـة والربـح» إلى ربـط الاسـتهلاك بتلـك السَّعادة؛ أي ربـط مـا يجنيـه المـرء مـن مـال، ومـا ينفقـه علـى شـراء الحاجيـات سـواء كانـت ضروريَّـة، أو غيـر ضروريـة، ومـا يمتلكـه مـن أشـياء بِغَـضِّ النَّظَـر عـن الحاجـة إلـى اسـتخدامها، بالسَّـعادة والرِّضـا. وسيشـجّع ذلـك المجتمـع الجميـع علـى الالتحـاق بسـوق العمـل؛ الرجـال، والنسـاء، والأطفـال. هكـذا، سـيكون بإمـكان أفـراد الأسـرة كافـة أن يجنـوا المزيـد مـن المـال. ولكـن، ليكـون بإمكانهـم أن ينفقـوا ذلـك المـال على شـراء الكثير من الأشـياء...

باتـت تجربـة الغـرب في الإنتـاج، والإنفـاق، والتَّصديـر، وفـي نمط الحياة، ومسـتوى الخدمـات، وطرائـق التفكيـر، مرجعيَّـةً نظريَّـةً، وأنموذجًـا يُقاس مـن خلاله، وبالنسـبة إليه مستوى مـا يتحقَّـق مـن تقـدُّم. ولـم يعـد مفاجئًـا مـا بعـد القـرن التاسـع عشـر أن تقتصـر معاييـر التَّقـدُّم في الأدبيَّـات البحثيَّـة التنمويَّـة والاجتماعيَّـة، على البُعْـد الاقتصـاديّ-الاسـتهلاكيّ؛ أي على مـا يحصـل عليـه الفـرد مـن مدخـول شـهريّ، أو سـنويّ، وبمقدرته علـى الإنفـاق، والشـراء، والتملُّـك. وعندمـا تحـدّد تلـك الأدبيَّـات النَّظريَّـة مقاييـس التَّقـدُّم، فإنّهـا تعـود إلـى نمـط حيـاة الغربيِّيـن، وطرائـق عيشـهم وإنفاقهـم؛ لتحـدّد إذا كان مـا يفعلـه غيـر الغربيِّيـن هـو تقـدُّم أم تخلُّـف، أو هـو فـي طريـق التَّقـدُّم، أو فـي طـور النُّمُـوّ. وهـذا يفسّـر كيـف قسَّـم مُنظِّـرو الغـرب العالـم فـي القـرن العشـرين إلـى ثلاثـة أقسـام؛ العالـم الأول: أميـركا وأوروبـا، والعالـم الثانـي: الاتِّحـاد السـوفياتيّ والكتلـة الشـرقيَّة، والعالـم الثالـث: الـدول العربيَّـة، والإسـلاميَّة، والأفريقيَّـة...أو كمـا فعـل آخـرون فـي تقسـيم للعالـم بيـن مجتمعـات متقدِّمـة ونامية هـي المجتمعـات الغربيَّـة، ومجتمعات مُتخلِّفـة، أو في طـور النُّمُـوّ هي المجتمعـات غيـر الغربيَّـة.

كان أنمـوذج الحيـاة الغربيّ-الاسـتهلاكيّ كمـا قدَّمتـه السـينما أحـد أبـرز أسـلحة المعركـة الثقافيَّـة والنّفسـيَّة الَّتـي خاضتهـا الولايـات المتَّحـدة، ومعهـا الغـرب ضـدّ غريمهـم الاتِّحـاد السـوفياتيّ طـوال الحـرب البـاردة فـي القـرن العشـرين؛ لإقنـاع المواطنيـن السُّـوفيات أنَّ حياتهـم فـي ظـلِّ النِّظـام الاشـتراكيّ، هـي حيـاة بائسـة تفتقـر

إلى القدرة على الشِّراء، والاستهلاك، والتَّباهي، والتَّملُّك. ويكرّر الغرب اليوم مثل تلك الحروب الثَّقافيَّة والنَّفسِيَّة مع دول يناصبها العداء، ويحسبها تهديدًا له، مثل: الصين، وروسيا، وإيران؛ ليُبيّن أنّ أنموذجه للحياة هو الأنموذج الأفضل، والأعلى، والمُتقدِّم.

لكن، خيبات الأمل من الجنَّة الموعودة لم تتأخّر، فأطلّت برأسها بعدما تحوّلت حياة الناس في الغرب إلى جحيم بدلًا من تلك الجنّة. ففي ذُرْوة التَّقدُّم العلميّ والتقنيّ، وفي ذُرْوة عقلنة كلّ ما يجري حول الإنسان، وادِّعاء سيطرته على مصيره، وعلى الطَّبيعة،... اندلعت الحروب بين حكومات الغرب نفسه في صراع على السَّيطرة، والنُّفوذ، والهيمنة؛ لتحصد عشرات الملايين من الضحايا، ومثلهم من الأرامل، والمُعوّقين. كان الأمر مثل صدمة كبيرة أطاحت بالوعد العظيم الَّذِي بشّرت به عقلانيَّة الأنوار، وإنسانيَّة النَّهضة، ومساواة الثورة الفرنسيَّة وإخائها.

لم يستسلم النِّظام الجديد لذلك الإحباط. فقد كانت مصالح الرأسماليَّة الصَّاعدة منذ القرن التاسع عشر تأبى أن تتوقّف عجلات المصانع عن الدَّوران لإنتاج السّلع؛ لتحقيق المزيد من البيع، والتشجيع على المزيد من الاستهلاك، وتحقيق المزيد من الربح. ولذا، دفعت تلك المصالح إلى إعادة ترميم ذلك الإحباط الفرديّ والجماعيّ من جهة، عبر التحفيز على الاستهلاك، وعلى ربط السّعادة ، ومعنى الوجود، والشُّعور بالذات بذلك الاستهلاك، وإلى البحث من جهةٍ أُخرى عن أسواق خارج أوروبا لتصريف الإنتاج، ووضع اليد على الموادّ الأوّليَّة والثّروات الَّتِي تختزنها بواطن الأراضي الَّتِي احتلّتها الجيوش الأوروبيَّة، منذ القرن التاسع عشر.

على الرّغم من التَّرابط الَّذِي حصل بين تقدُّم الغرب، وبين احتلاله بلدانًا وشُعُوبًا عدَّة، فإنَّ الأدبيَّات النَّظريَّة في المجالات: السِّياسيَّة، والتَّنْمويَّة، والحضاريَّة، لا تزال بغالبيّتها تعدُّ التّجربة الغربيَّة أنموذجًا للتّقدُّم والمقارنة، ويعتمد ذلك الأنموذج للقياس على البُعْد المادِّيّ لإنجازات الغرب؛ أي على ما أنجزه الغرب في مجالات التقنية، وفي تطوُّر وسائل النّقل، وفي صناعة السّلاح، وسوى ذلك ممَّا يحتاج إليه الإنسان في حياته اليوميَّة للتنقُّل، أو للصِّناعة، أو للغذاء.

لم تلتفت معظم تلك الدِّراسات والنَّظريَّات في تحديد التَّقدُّم ومعاييره إلى أنّ الأنموذج الغربيّ الَّذِي حسبته مرجعيَّة قياس ومقارنة أنّه كان أنموذجًا غربيًّا خاصًّا لا يمكن تعميمه، أو مقارنته مع ما تحتاجه دول أخرى ؛كي تكون مُتقدِّمة. هذا

فضلًا عن تحديد معنى التَّقدُّم، وما هو المقصود به، وإلى أين يفترض أن تنتقل المجتمعات؛ كي تكون في مسار التَّقدُّم...

لقد بُني التَّقدُّم الغربيّ على ثلاثة مرتكزات جعلته أنموذجًا غربيًّا خاصًّا؛ أولًا: إنَّه عدَّ التَّخلِّي عن الدين وثوابته نقطة انطلاق عجلة التَّقدُّم. وثانيًا: إنَّه جعل التَّقدُّم في العلم، وفي الصِّناعات المختلفة أداةً للسَّيْطَرة والاحتلال، كما فعل في أفريقيا، وآسيا، وفي دول عربيَّة، وإسلاميَّة. وأنّ «الجنّة الموعودة» ثالثًا، ومعها «الوعد العظيم» تحوّلت إلى جنَّة استهلاك، وشراء، واقتناء، وتملُّك. وتشير وقائع الحياة اليوميَّة في الغرب، مع ذلك التحوُّل، أنَّ الأزمات، والاضطرابات النفسيَّة، ومؤسَّسات العلاج المرتبطة بها، باتت الأكثر شيوعًا وانتشارًا، خاصّة بعد الصّدمات الوجوديَّة الَّتي نتجت عن الحربين العالميّتَين.

لقد حوَّلت الدِّراسات النَّفْسيَّة أسباب الأزمة إلى داخل الإنسان، وليس إلى الأنموذج الجديد الَّذي فشل في تحقيق وعود الجنَّة على الأرض، ووعود النَّهضة والأنوار. وربّما يفسّر ذلك الأمر ما أعقب تلك المرحلة، في مطلع القرن العشرين، من اتِّجاهات فكريَّةٍ وفلسفيَّةٍ، أثارت الشكوك في ما قدَّمته تجربة الحداثة ، ودعت إلى عدم الأخذ بها وبأصولها الفكريَّة، وبرؤاها الاجتماعيَّة، وإلى عدم عَدِّها تجربةً يمكن، أو يجب تعميمها.

لم تعتنِ تجربة التَّقدُّم الغربيّ، بالبُعْد المعنويّ-الإنسانيّ. ولم تعدّ معظم نظريّات التَّقدُّم ذلك البُعْد من مقاييس التَّقدُّم الأساسيَّة. وكان من المنطقيّ ألَّا تهتم التجربة الغربيَّة بذلك البُعْد، وهي الَّتي ربطت مسار تقدُّمها بالقطيعة الَّتي أحدثتها مع الدِّين، ومُؤسَّساته.

لكن، عندما ننظر إلى التَّقدُّم من منظار آخر، لا يُختصر بجوانبه المادِّيَّة من صناعاتٍ، وتقنياتٍ، وخدماتٍ، ولا يكتفي بها لتحديد مستويات التَّقدُّم؛ بل يستحضر البُعْد المعنويّ، والأخلاقيّ، والإنسانيّ، بوصفها مقاييس للتقدُّم، سنلاحظ أنَّ معايير التَّقدُّم ستختلف؛ لأنّ ما يفترض أن يثير النّقاش هو ما المقصود بالتَّقدُّم، وإلى أين ينبغي أن يسير الإنسان والمجتمع؛ كي يكون مُتقدِّمًا، أو في مسار التَّقدُّم؟ وما الأهداف الَّتي وضعها لنفسه؛ كي يكون مشروعه مُتقدِّمًا وإنسانيًّا ؟ بغضِّ النَّظَر عن تحقُّق الظُّروف، أو القُدرات للوصول إلى تلك الأهداف.

هكذا يصبح التقّدم منوطاً بالأهداف التي يُراد تحقيقها، وبالغاية من التملُّك،

ومن الإنفاق، ومن امتلاك القوَّة؛ أي أنّ الأهداف الَّتِي يُعمل لتحقيقها تصبح هي مقياس التَّقدُّم وليس الأدوات الَّتِي تستخدم لتحقيق تلك الأهداف؛ إذ قد تكون تلك الأدوات بسيطة، أو بدائيَّة، وقد تعوق تحقيق الأهداف، أو تؤخّرها لكنّها تبقى أهدافًا نبيلة، أو إنسانيَّة. في حين أنّ الأدوات الحديثة، مثل: التكنولوجيا المتطوِّرة، لا تعني على الإطلاق أنّ ما يجري هو تقدُّم لمجرَّد أنّ الأدوات متقدِّمة وحديثة ومتطوّرة. الفارق كبير جدًّا بين الأهداف، وبين الأدوات في تحديد معايير التَّقدُّم.

إنَّ الإسلام، بوصفه منظورًا دينيًّا حضاريًّا، على سبيل المثال، لا يكتفي بالقوَّة الشرائيَّة لمؤشر الدَّخْل الحقيقيّ للفرد فحسب؛ بل يعتقد أنَّ من الضَّروريّ أيضًا أن يكون ذلك الدَّخل حلالًا، وطيّبًا، ومراعيًا للحدود الإلهيَّة، والقيم الإنسانيَّة، في توفير سُبُل العيش. إنّ ما يميز مؤشّر التَّقدُّم الإنسانيّ عن مؤشر التنمية البشريَّة التقليديّ الرائج هو أنّه في برنامج التَّقدُّم الإنسانيّ الإسلاميّ تُعَدُّ كيفيَّة تمضية العمر ، ونوعيَّة توفير سُبُل العيش أهمّ من طول العمر، ومجرَّد توفير سبُل العيش، ومعظم الإستراتيجيّات، والحلول المقترحة في التعاليم الدينيَّة، تبحث عن التَّسامي، والارتقاء الرُّوحيّ لحياة الإنسان.

بناءً لهذا التباين بين مقاربتين مختلفَتين للتنمية والتَّقدُّم، ليس بالضَّرورة أن يكون مجتمع الأفراد المتعلِّمين، والأصحّاء، وذوي الدَّخْلِ المرتفع؛ مجتمعًا مُتقدّمًا؛ بل إنّ عناصر، مثل: العلم، والصّحّة، والثروة، يمكن أن تؤدّي إلى غفلة الإنسان، وفي النِّهاية إلى سقوط الحضارات البشريَّة وأفولها...وما يشهده عالم الغرب اليوم من تَقدُّم مُتَسارع، في تطوير التقنيّات، ومن مُؤشّرات غير مسبوقة، في الوقت نفسه، على التراجع الهائل أخلاقيًّا، وأُسريًّا، وإنسانيًّا، يؤكِّد أنّ ذلك التَّقدُّم كلّه لن يحمي المجتمعات، والحضارات من السُّقوط، والانهيار.

طلال عتريسي